أ.د . إسحاق عبيد مؤرخًا للحروب الصليبية

إعـداد

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

بجامعتي عين شمس والشارقة

تاريخ قبول النشر : ٢٥ / ٨ / ٢٠١٦

أ.د إسحاق عبيد مؤرخاً للحروب الصليبية

يتناول هذا البحث بالدراسة، إسهام المؤرخ المصري البارز ا.د. إسحاق عبيد في مجال تاريخ الحروب الصليبية من خلال التعريف الموجز به، ثم محاولة تحليل ذلك الاسهام؛ولاكتشاف ملامح رؤيته كمؤرخ في المجال المذكور .

وقد ولد ا.د . إسحاق عبيد في البداري بأسيوط بصعيد مصر في يوم ١١ مايو١٩٣٣م، وواصل كفاحه وتعليمه إلي أن حصل علي ليسانس الحضارة من كلية الآداب – جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٥م، ثم تم تعيينه معيداً بكلية الآداب – جامعة عين شمس، وابتعث من بعد ذلك إلي إنجلترا، وحصل علي الدكتوراه من جامعة نوتنجهام Nottingham تحت إشراف المؤرخ البريطاني البارز برنارد هاملتون Bernard Hamiltonالمتخصص في التاريخ الكنسي في العصور الوسطي في موضوع العلاقات بين روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزواللاتيني للقسطنطينية عام ١٢٠٤م، وقد أنجزها عام ١٩٦٨م .

من بعد عودته إلي أرض الكنانة، عمل مدرساً لتاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب – جامعة عين شمس، ثم أستاذاً مساعداً، ثم استاذاً وذلك عام ١٩٨٠م وعلي المستوى الإداري شغل منصب رئيس قسم التاريخ بالكلية المذكورة .

عمل مؤرخنا البارز في عدة جامعات عربية، مثل جامعة بني غازي بليبيا، وجامعة صنعاء باليمن،وجامعة الكويت .

ومما يذكر له، أنه عمل كأستاذ زائر في كلية هولواي الملكية التابعة لجامعة لندن عام ١٩٨٥– ١٩٨٦م .

كذلك عمل أستاذاً زائراً في جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٨م .

أشرف مؤرخنا علي عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في مجال تاريخ أوروبا العصور الوسطي، والتاريخ البيزنطي، وتاريخ الحروب الصليبية، ومن أمثلة تلاميذه، نبيلة إبراهيم مقامي، وعبد اللطيف عبد الهادي السيد، وإيمان كامل ثابت، وغيرهم .

قدم الأستاذ الدكتور إسحاق عبيد عدة مؤلفات قيمة للمكتبة العربية نذكر منها التالي :

– روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين،ط. القاهرة ١٩٧٠م .

– الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة لكتاب مدينة الله لأوغسطين، ط. القاهرة ١٩٧٥م .

– الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع،ط. بني غازي ١٩٧٥م .

– من الارك إلي جستينيان – دراسة في حوليات العصور المظلمة،ط. القاهرة ١٩٧٧م.

– الدولة البيزنطية في عصر أسرة باليوغوس،ط. بني غازي ب.ت .

–معرفة الماضي من هيرودوت إلي توينبي،ط. القاهرة ١٩٨١م .

– أوروبا في بحر الظلمات،ط. الكويت ١٩٩٥م .

– مصر منارة البحر المتوسط،ط. القاهرة ١٩٩٥م .

– أوروبا عصر النهضة،ط. القاهرة ٢٠٠٠م .

أما البحوث فيمكن إبراز أغلبها علي النحو التالي :

– قصة عثور القديسة هيلانة علي خشبة الصلب أسطورة أم حقيقة، مجلة كلية الآداب – جامعة عين شمس م (١٧) عام ١٩٧٠م .

– أبيلار اللاهوتي الحر، المجلة التاريخية المصرية، م(٢٠) عام ١٩٧٣م .

– جان دارك دراسة وثائقية، المجلة التاريخية المصرية عدد عام ١٩٧٧–١٩٧٨م .

– الحروب الصليبية غزوة مدمرة تحت قناع الدين، محاضرة بجامعة الكويت عام ١٩٧٧م.

– أثر أبوالعلاء المعري علي دانتي الليجري في الكوميديا الإلهية، محاضرة في كلية رويال هولواي – جامعة لندن عام ١٩٨٥م – ١٩٨٦م .

– الذات والموضوع في كتابات مؤرخي العصور الوسطي، ضمن كتاب الدراسات التاريخية للحلقة النقاشية (السمنار) لمجموعة أعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ بجامعة الكويت،ط. الكويت ١٩٧٤م .

– شمس العرب تسطع علي باليرمو، هيئة اليونسكوعام ١٩٩١م .

– شمس العرب تسطع علي أرض النيل، ضمن كتاب الاحتفال بدخول الإسلام مصر، ضمن كتاب أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية، هيئة قصور الثقافة، تحرير قاسم عبده قاسم،ط. القاهرة ١٩٩٩م .

– تكوين المصريين وحضارتهم الأخلاقية، ضمن كتاب حكمة المصريين، تقديم وتحرير محمد السيد سعيد، مركز القاهرة لحقوق الإنسان،ط. القاهرة ١٩٩٩م .

– الخطيب سينسيوس القوريني عن فلسفة الحكم، محاضرة ضمن ندوة حدود مصر الغربية المنعقدة في المجلس الأعلي للثقافة من ١ إلي ٨ أبريل ٢٠٠٢م .

التحقيق :

فيما جرى في بيعة الإسكندرية بعد المجمع الخلقدوني المقدس، حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس عدد (١٣) عام ١٩٧٣م .

المقالات بالإنجليزية :

(1)The Fourth Crusade " Was Pope Innocent III Accomplice in The diversion of

مجلة الجمعية التاريخية المصرية، العدد (١٥) عام ١٩٦٩م [١] .

تجدر الإشارة، إلي قيامي بإعداد كتابين تكريميين للمؤرخ المذكور في الصورة التالي :

– دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب العصور الوسطي، عين للدراسات والنشر،ط. القاهرة ٢٠٠٣م .

– الحروب الصليبية حركة الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطي،دار الأفاق العربية،ط. القاهرة ٢٠١٤م .

واقع الأمر؛ أن مصادرنا في دراسة رؤية ا.د. إسحاق عبيد عن الحروب الصليبية، يمكن إدراكها علي نحوخاص من خلال المؤلفات التالية :

١– روما وبيزنطة؛ وهوأطروحته للدكتوراه كما أسلفت، ويعد واحداً من اهم الدراسات في مجال تاريخ الحروب الصليبية، والتاريخ البيزنطي وقد صدر العمل العلمي الريادي المذكور عام ١٩٧٠م والآن وبعد مرور ٤٥ عاماً علي صدوره لا نجد عملاً عربياً ينافسه دونما أدنى مجاملة .

٢– محاضرة عن الحروب الصليبية بوصفها غزوة مدمرة تحت قناع الدين وقد افاد منها مما ورد لدي كتابه روما وبيزنطة .

٣– تقديمه للكتاب ريمون ستانبولي بعنوان : مفاتيح أورشليم القدس، حملتان صليبيتان علي مصر (١٢٠٠– ١٢٥٠م) ت عايدة الباجوري، المشروع القومي للترجمة،ط. القاهرة ٢٠٠٤م .

بصفة عامة، عندما نتأمل دراسته الرائدة روما وبيزنطة، نجده يقدم لنا تعريفاً علي جانب كبير من العمق للحروب الصليبية بصورة لا نجدها في أي دراسة سابقة بالعربية عن تلك الحروب، ويعد تعريفه متقدماً علي ما ورد لدى ا.د سعيد عاشور في كتابه الريادي الحركة الصليبية الذي صدر بالقاهرة عام ١٩٦٣م قبل سبع سنوات من صدور روما وبيزنطة عام ١٩٧٠م .

وقد قدم مؤرخنا البارز تعريفاً للحروب الصليبية نورده بنصه كالتالي :" الصليبية في ظاهرها حملات حربية لها ميزتان تعارفت جماعة المؤرخين عليهما،غفران كنسي، ثم شارة صليب قماش أحمر يتزين بها المحاربون، ولا يمكن أن تنكر أن هذه الحركة قد ورثت بعض السمات عن الحروب المقدسة، غير أنها كانت شيئاً جديداً تماماً، فهي أول حركة جماعية لغرب أوروبا اللاتيني تتسلح وتزحف نحوالشرق تحت إشراف وقيادة كنيسة روما، هذه الحركة لم تكن موجهة ضد الإسلام فحسب، وإنما ضد مجتمعات مسيحية غير مرغوب فيها ومن

وجهة نظر البابوية، وما أن قامت هذه الحركة إلي حيز الوجود الفعلي، حتى حمل لواءها البارونات الإقطاعيون، والفرسان المفلسون والبائسون من الدهماء كل يبغي من ورائها قصداً ذاتياً، كما كانت البابوية تعقد آمالاً عراضاً من وراء الصليبيات في إرجاع الكنائس الشرقية إلي السلطان الروماني "[٢].

والواقع أن التأمل في هذا التعريف يتضح لنا أنه جامع شامل، ويمتاز بالعمق والتركيز وفيه كافة عناصر المشاركين في الحركة الصليبية علي اختلاف توجهاتهم ومصالحهم، كما أنه يكشف لنا عن الدوافع الحقيقية للبابوية في روما في صورة إخضاع الكنائس الشرقية لسلطانها .

من جهة أخرى، حرص ذلك المؤرخ الرائد علي الإشارة إلي أن فهم الأيدلوجية الصليبية لن يتم إلا من خلال دراسة عقلية أولئك الذين شاركوا فيها بتوجهاتهم المختلفة، ولذلك قال : " لا يمكن أن نوفي إيدلوجية الصليبين حقها دون أن ندرس عقلية الذين شاركوا فيها، ومواقعهم، واتجاهاتهم، وثقافتهم والظروف التي دفعت بهم إلي الانخراط فيها سواء كانوا من العلمانيين العوام أوالكهنوت أوالأمراء" [٣] وفي هذا القول الدليل الناصع علي أن ذلك المؤرخ يوجهنا صوب البحث عن تلك الإيديولوجية في قطاعات مختلفة من أبناء المجتمع الأوروبي الوسيط المتنوع المشارب والتوجهات، وتدل عبارته علي ضرورة عدم تبني تعريفات جاهزة للحروب الصليبية دون البحث بعمق في أيدلوجية الحركة ذاتها باعتباره مرحلة محورية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي خاصة خلال القرنين ١٢،١٣م.

وفي تقديري أنه يعد أول مؤرخ مصري عربي يتحدث عن الحركة الصليبية كأيدلوجية، مما دل علي رغبته في تأصيلها والبحث عن دوافعها الكامنة التي وقفت من ورائها .

لقد امتلك ا.د. إسحق عبيد صفة التأني وعدم التسرع في تأييد توجهات المؤرخين الغربيين في فهم طبيعة الحركة الصليبية، ولا أدل علي ذلك موقفه من تصور بعضهم حيال بداية الحروب الصليبية في عهد السرة المقدونية .

وقد أورد ما نصه :" اعتقد الكثيرون أن جهود الأسرة المقدونية (البيزنطية) في استرداد آسيا الصغرى وسوريا ضرب من الصليبيات، فظن رينيه جروسيه أن صيحة نفقور فوكاس وهويخطب الجماهير في الهبدروم أن انتصارنا انتصار الله علي أبناء هاجر لا تختلف عن صيحة أوروبان الثاني Deus Vult في كلير مون ١٠٩٥م (٤) .

واقع الأمر، أن هناك من بداية هذا التوجه إلا أن الرؤية الموضوعية تؤكد أن نشاط القادة العسكريين البيزنطيين مثل نقفور فوكاس، ويوحنا فوكاس،ويوحنا تزيمسكس لا تعد صليبيات بأي حال من الأحوال لاعتبارات محددة، إذ أن الحروب الصليبية اندلعت عام ١٠٩٥م، وليس قبل هذا التحديد الزمني، كما أنها صادرة عن كنيسة روما ولم تصدر عن كنيسة القسطنطينية التي رفضت أصلاً فكرة الحرب في المسيحية .

ولا نغفل هنا ملاحظة أن المؤرخ السكندري الراحل ا.د. عمر كمال توفيق نظر إلي تلك الحملات علي أنها مقدمات العدوان الصليبي، إلا أن المرجح وصفها بمرحلة ما قبل الصليبيات أو.Pre- Crusades .

هكذا، أكد لنا ا.د. إسحاق عبيد أنه صاحب رؤية مستقلة، ولم يكن تابعاً لتوجهات المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه الذي يعد كتابه رائداً لا ريب، لكن تطورت كتابات المدرسة الفرنسية من بعده، علي نحو أدي إلي ظهور أعلام بارزين خاصة كلود كاهن Claude Cahen، وجان ريتشارد Jean Richard والأول أكثر تميزاً من خلال دراسته الرائدة بعنوان :

La Syrie du nord a,l,epaques des Croiades , paris 1940 .

أي سوريا الشمالية في مرحلة الحروب الصليبية، مما يجدر ذكره هنا، أن رينيه جروسيه تعرض للنقد اللاذع من جانب كلود كاهن، وقرر ما يفيد بأنه من المؤسف أن صاحب أشهر دراسة بالفرنسية عن تاريخ الحروب الصليبية والتي صدرت بعنوان : Historie des Croisades لم يكن يعرف سوى اللغة الفرنسية فقط !!.

ومع ذلك علينا إدراك قيمة جهد ذلك المؤرخ الفرنسي البارز من خلال إمكانات عصره بطبيعة الحال، ولذلك صار كتابه الموسوعي المذكور من كلاسيكيات الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنه .

وفي موضع آخر من روما وبيزنطة : يشير إلي ما نصه بقيام الحركة الصليبية، غدت الحرب أمراً مقدساً ومشروعاً عند كنيسة روما، وحتى رجال الدين قد سمح لهم ايضاً بحمل السيوف والمقاتلة "[٥]، وهوفي ذلك يشير ضمنياً إلي التحريب الذي لحق بالمسيحية، فهي في الأصل ديانة مسالمة لكن آباء الكنيسة وخاصة القديس أوغسطين St. Augustin عمل علي إدخال فكرة الحرب فيها، وأوجد مفهوم الحرب العادلة Bellum Justus وكذلك الحرب المقدسة Bellum Sacrum [٦]، وهوأمر وجدناه لدى كنيسة روما وأن اختلفت عنها كنيسة القسطنطينية في ذلك التوجه .

من ناحية أخرى، تناول الانتصارات التي حققها البيزنطيون علي السلاجقة عام ١٠٩٠م،وكذلك انتصاراتهم علي الصرب عام ١٠٩١م، ثم أضاف " هذه الحقائق تقع في يقين أن محنة بيزنطة قد إنتهت في أبريل ١٠٩١م، وعلي هذا فإنه لم يكن هناك حاجة علي الإطلاق بعد ذلك بأربعة أعوام (١٠٩٥م) لأن تلجأ السلطات الإمبراطورية البيزنطية إلي البابوية لطلب العون" [٧] .

وبالتالي نجده هنا ينفي الفكرة المعتادة، والشائعة بأن السبب الرئيسي لاندلاع تلك الحروب يتمثل في استعانة بيزنطة بالغرب الأوروبي في أعقاب هزيمتها النكراء في معركة مانزكرت عام ١٠٧١م، وذلك يكشف لنا عن رغبته في تجاوز التصورات التقليدية المعتادة التي كثيراً ما ترددت في المراجع الأوروبية والعربية علي حد سواء عن مبررات قيام الحركة الصليبية .

كذلك يوجه مؤرخنا الرائد اهتماماً خاصاً بخطاب البابا أوربان الثاني Urban II [٨] (١٠٨٩-١٠٩٩م) في مجمع كلير مونت Clermontبفرنسا يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، وقد درسه دراسة عميقة من خلال مقارنة نصوص المصادر التاريخية المعاصرة، وقد أفاد بالطبع من دراسة المؤرخ الأمريكي دانا مونرو Dana Munro في دراسته الرائدة بعنوان :

" The Speech of pope Urban II at Clermont , 1095" A.H.R., II IX, 1905, pp.231-242.

وقد أشار مؤرخنا إلي الأمر من خلال قوله : " بدأ (أي البابا – خطابه بحث مستمعيه من الاكليروس علي السلوك الحسن، وفق قانون الله حتى يكونوا باستحقاق من رعاة للشعب، " فأنتم ملح الأرض فإن فسد الملح فبماذا يُملح ؟ وطلب من الجماهير الالتزام بقانون الكنيسة وبهدنة وبسلام الله "(٩) .

وقد برر البابا قيام هذه الحركة بما أسماه الأحوال التعسة التي تردت فيها الكنائس الشرقية تحت نير الفرس (الأتراك) ووجه التعاسة هنا هوأن الترك قد حولوا الكنائس الشرقية إلي اسطبلات لخيولهم، وان الدم المراق في الشرق ليستصرخ مسيحيي الغرب غرب أوروبا ليهبوا لنجدة إخوانهم التعساء من سيوف العدووالويل لمن يستطيع العطاء والنجدة ثم ينكص عن الإغاثة ".

نجد البابا يعدد لجمهوره آفات المجتمع الغربي الاقطاعي؛ فيوضح لهم أن رقعة الأرض لم تعد بكافية لاستيعابهم، فاتحاً أمام المفلسين من البارونات والفرسان جنات خضر في الشرق الدافئ لا يعدوثمنها مغامرة صليبية، ونجد أصحاب الحوليات المعاصرين يؤكدون لنا أن مجرمي الأمس أضحوا اليوم جنداً للمسيح (١٠) .

من جهة أخرى، حرص مؤرخنا الرائد علي إبراز القدس ومكانتها في خطاب البابا أوربان الثاني حيث قرر ما نصه : " عنصر الإلهام الذي أرتكز عليه خطبة أوربان هوالضريح المقدس للمسيح في بيت المقدس، مدينة الله "(١١) .

أما المميزات العديدة التي ستتوافر لمن يشارك في المشروع الصليبي فقد أبرزها مؤرخنا في صورة التالي : هناك مميزات أخرى يجنيها الصليبي فإن آثامه تغفر لحظة مسيرته نحوالشرق، وإذا قتل فهوشهيد تحتضنه ملكوت السموات، واما الذين يستولون علي القدس فإن أمامهم أنهار من جنات كنعان حيث تفيض بالعسل واللبن " (١٢) .

والأمر المؤكد أن ذلك المؤرخ البارز حرص علي الاهتمام بخطاب ذلك البابا نظراً لدوره المحوري في إشعال الحرب العالمية في العصور الوسطي ونعني بها الحروب

الصليبية، لذلك حرص علي دراسته وتحليله باستفاضة، وهوفي نفس الوقت لم يقع في أسر القائد الفرد الواحد لحركة التاريخ، وبالتالي حرص علي التأكيد علي المعاصرين له الذين استجابوا لدعوته، فهونتاج عصره والتاريخ يصنعه الاثنان معاً البطل الفرد بالإضافة إلي البطل الشعبي، وبالتالي أكد علي رؤيته الموضوعية لتلك المرحلة الفارقة من تاريخ الغرب الأوروبي وعلاقته بالشرق بيزنطيا كان أم إسلامياً .

من جهة أخرى، حرص مؤرخنا علي إبراز صورة الحركة الصليبية منذ لحظة ميلادها الأولي علي أنها صفقة تجارية من جانب البابوية لمن يشارك فيها من خلال المكاسب المادية باستعمار الشرق، وكذلك المغانم الروحية من خلال فكرة الغفران الكنسي للمشاركين،والاستشهاد لمن يقتل خلال هذا الحج إلي المحارم المسيحية .

لا نغفل أن مؤرخنا أكد ضمنياً علي أن الحركة الصليبية لم تكن لتنجح بدون الجانب الدعائي لها، وأن الدعوة الصليبية [١٣] Crusading Propaganda كان لها دورها الحاسم في إنجاح هذا المشروع الحربي الضخم الذي هندست له البابوية من أجل تحقيق أهدافها .

لا نغفل كذلك إسهام مؤرخنا في دراسة دوافع الحملة الصليبية الربعة [١٤] وهي حملة محورية في تاريخ العلاقات بين الغرب الأوروبي الكاثوليكي والشرق البيزنطي الأرثوذكسي، حيث درسها دراسة مستفيضة، وتوصل إلي نتائج تعد مصححة Corrective لتصورات سابقة كانت ترى أن الحملة المذكورة انحرفت عن طريقها الأصلي فتوجهت نحوالقسطنطينية.

لقد اهتم ذلك المؤرخ بدراسة دور البابا إنوسنت الثالث [١٥] (١١٩٨– ١٢١٦م) في تلك الأحداث، وقد درس دوره مفصلاً في كتابه روما وبيزنطة، كما خصص مقالة مستقلة عنه باللغة الإنجليزية أوردت امرها من قبل عنوانها عبارة عن تساؤل محوري مفاده : هل تورط البابا إنوسنت الثالث في إنحراف الحملة الصليبية الرابعة ؟ .

توصل مؤرخنا إلي حقيقة اجملها علي النحوالتالي " ليس من العدالة في شيء أن يقال أن البابا إنوسنت الثالث قد وجه بالأمر الواقع فأقر الصليبيين علي فعلتهم في غزو

بيزنطة، ذلك لأن البابا كان يعلم علم اليقين أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تستهدف الهجوم علي القسطنطينية كما وأنه قد توطأ فتباطأ في إدانة " انحرافهم " علي زارا ومدينة قسطنطينية العظيم، وبهذا فقد سمح لقادة الصليبيين بالمضي قدماً في مخططهم العدواني ضد الإمبراطورية البيزنطية، ولوفحصنا إمكانيات إنوسنت الثالث بعد سقوط القسطنطينية، لوجدنا أنه كان راضياً كل الرضا عن " النجاح المظفر " الذي حققته الحملة لإعلاء شأن كنيسة روما(١٦) .

هكذا امتلك مؤرخنا الرائد شجاعة إتهام البابوية بأنها كانت وراء كارثة عام ١٢٠٤م التي تعد نقطة تحول فارقة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب وكانت بمثابة المقدمة الحقيقية لسقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين بقيادة محمد الثاني بن مراد الثاني الملقب بالفاتح في فجر الثلاثاء ٢٩مايو١٤٥٣م .

الأمر المؤكد أن إنجاز مؤرخنا في دراسة تلك الحملة الصليبية، يعد عملاً رائداً ونقلة نوعية تحسب للكتابة التاريخية المصرية والعربية عن تلك المرحلة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي .

لقد حرص مؤرخ روما وبيزنطة علي إبراز سلوكيات الصليبيين المتبربرة عندما غزوا القسطنطينية، واعتمد في ذلك علي نصوص المصادر البيزنطية المعاصرة خاصة شهود العيان مثل المؤرخ البيزنطي نيكتاس خونياتس (١٧) Nicetas Choniates (ت١٢١٧م). الذي شاهد بعيني رأسه ما فعله اللاتين من صور معشوقته الخالدة القسطنطينية !! وفي ذلك قال :" ولج الغزاة قلب مدينة قسطنطين، وعملوا نهباً وتقتيلاً في أهلها، وهلك قوم كثيرون من شعب العاصمة حتى بات من العسير حصر أعداد القتلى، وأشعل الصليبيون حريقاً مروعاً في الحي المكتظ بالسكان في قلب المدينة، بينما انتشرت جماعات منهم تنهب الدور، والقصور، والكنائس والحوانيت؛ بحثاً عن الغنائم، وكان الحصاد وفيراً للغاية حتى فاق كل تقدير، فمن ذهب إلي زمرد وفضة وكل ما تشتهيه الأنفس من ثمين علي وجه المسكونة، كما يشهد بهذا فلهاردوين ذاته " (١٨) .

من الملاحظ هنا أن مؤرخنا، حرص علي إيراد نصوص المؤرخ فلهاردوين [١٩] حتى لا يتهم بإنحيازه إلي المصادر البيزنطية فقط، وبالتالي أراد أن تكون مصادر الطرفين شاهدة علي وحشية وبربرية الصليبين في التعامل مع عاصمة إمبراطورية مسيحية .

لا نغفل اشارته إلي سلوك الصليبيين في تلك المدينة من خلال قوله " : تسجل صفحات التاريخ كيف أنه في سنة ١٢٠٤م هجم الصليبيون علي مدينة القسطنطينية المسيحية، بمباركة البابا انوسنت الثالث، وراح الصليبيون في النهب والسلب، ثم اقتحموا كنيسة آيا صوفيا بخيولهم، وفي نهاية اليوم اجلسوا راقصة بروفنسالية متهتكة علي عرش البطريرك البيزنطي لتغني لهم أغانيهم الفاحشة، وهم سكاري ناهيك عن نبش قبور الأباطرة – لنهب الذهب من الأكفان [٢٠] .

ويصل مؤرخنا إلي بيت القصيد في أمر الحركة الصليبية التي وصفها المؤرخ البريطاني السير ستيفن ريسمان Sir Steven Runciman علي أنها آخر الغزوات المتبربرة [٢١] Last of The Barbarian invasions، وهي بالفعل كذلك حيث قال مؤرخنا ما نصه :" لابد من إيضاح ان العدوان الصليبي لم يكن موجهاً فقط ضد الإسلام والمسلمين، وإنما أيضاً ضد المسيحيين الشرقيين بمختلف طوائفهم، لأنهم، من وجهة النظر الإفرنجية – قد تردوا في الهرطقة ".

واقع الأمر أن مؤرخنا أظهر تعاطفاً مع بيزنطة في دراسة، وهوأمر متوقع ومنطقي تماماً مع من تعايش مع مصادر تاريخها منقباً عنه في البازولوجيا اليونانية، واللاتينية، إلا أنه لم يكن منحازاً لها، بل تحرك من خلال روح الموضوعية وهنا أظهر لنا ا.د. إسحاق عبيد مقدرة كبيرة في ان يتعاطف ولا ينحاز، بل ويجعل القارئ نفسه يتعاطف مع من دمره الصليبيون من خلال رغبة مجنونة ومسعورة في الثأر دون إغفال وجود فجوة حضارية بالغة الاتساع بين الغرب الأوروبي وبيزنطية، إذ أن الأخيرة كانت تتفوق عليه مرات ومرات ولم يكن هناك وجه للمقارنة ولذلك عندما سقطت في أيدي اللاتين كانت تحركهم تجاهها عقد تاريخية وحضارية تكشفت علي الملأ من خلال سلوكهم المتبربر .

تجدر الإشارة، إلي أن سقوط تلك العاصمة الإمبراطورية الخالدة، كشف لنا عن حقيقة علي جانب كبير من الأهمية، في صورة الأهداف المعلنة، والأخرى المستترة في

المشروع الصليبي، فالبابا أوربان الثاني لم يكشف عن هدفه في إخضاع الكنائس الشرقية، وجعل محور خطابه القدس وتحريرها من غزاتها، وبالتالي حرص علي إنجاح مشروعه من خلال وحدة الهدف الواحد، وفيما بعد أتضح لنا أن المشروع الصليبي أشبه بأخطبوط بأذرع متعددة، وأن هناك ما هو معلن، كما حدث في مجمع كلير مونت عام ١٠٩٥م وما هو مستتر، ووجدناه علي أرض الواقع من نهب وسلب ثروات الشرق،وتوحيد الكنائس تحت راية الجالس علي مقعد القديس بطرس St. Peterفي روما، علي نحوأكد علي دهاء البابوية التي هندست في الأصل لذلك المشروع الحافل بالتآمر والدماء !!. .

كما حرص ذلك المؤرخ علي إبراز الدور القوي في التآمر في إسقاط القسطنطينية عام ١٢٠٤م وهودور رئيسي ولا يفهم امر الحملة الرابعة بدونه حيث قال : كان للبنادقة حكومة وشعباً رغبة جد كبيرة في تحطيم كيان بيزنطة " أما تعليل ذلك فقد أورده علي أنه " الانتقام من أحداث ١١٧١م، ثم الحصول علي امتيازات تجارية واسعة يعد اسقاط الحكومة البيزنطية والفوز بنصيب كبير من أراضيها الساحلية، ولذا فإن نيكتاس خونياتس المؤرخ البيزنطي المعاصر– شاهد العيان قد كتب فأوضح أن داندلوActor rerum لما حل ببيزنطية من خراب في عام ١٢٠٤م [٢٣] .

بصفة عامة من الممكن إجمال ملامح رؤية المؤرخ البارز إسحاق عبيد لتاريخ الحروب الصليبية من خلال العناصر التالية :

أولاً : لم يسع ذلك المؤرخ إلي اللهث وراء الأحداث التاريخية، بل إتجه صوب دلالاتها، وهكذا وجدناه يبحث في موضوع العلاقة بين بيزنطية والغرب الأوروبي علي مدى عدة قرون، ولم ينجرف نحوكم هائل من الإشارات المصدرية السياسية والكنسية والعسكرية في علاقة الطرفين معاً، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لأنه بذلك فضل دراسة مقدمات ونتائج الحدث التاريخي ذاته عن تركيبته البنيوية بصورة دلت علي أنه صاحب توجه خاص في الكتابة التاريخية ولم يقلد أحداً، ولذلك كان كتابه : روما وبيزنطة معبراً عن شخصية علمية تركت بصمة خاصة في الكتابة التاريخية المصرية والعربية .

ثانياً : إتجه ا.د. إسحاق عبيد إلي البحث عن الجذور التاريخية في علاقة بيزنطة بالغرب الأوروبي ولذلك بدأ من قطيعة فوشيوس Photius Schism عام ٨٦٩م، وصولاً إلي الانشقاق الأعظم Great Schism عام ١٠٥٤م لكي يفسر الحدث المحوري المروع الذي وقع عام ١٢٠٤م بسقوط مدينة قسطنطين تحت اقدام الغزاة الصليبيين، وهوفي ذلك يبرهن لنا أن حدثاً تاريخياً بذلك الثقل وقد وقع في مطلع القرن ١٣م من الممكن ترصد جذوره منذ القرن ٩م، وهوأمر استبعد تماماً حدوثه ككتابة تاريخية دون ان يكون صاحبه علي دراية عميقة بفلسفة التاريخ Philosophy of History التي شغف بها وخصص لها دراسة بعنوان : معرفة الماضي من هيرودوت إلي توينبي .

ثالثاً : من الواضح تماماً،أن الاهتمام الأبرز لدى ذلك المؤرخ فيما يتصل بأدوات الكتابة التاريخية، يتمثل في التوثيق المصدري الذي لم يسع إلي اللهث وراء الإشارات المرجعية الغربية هنا وهناك إلا عند الضرورة، ولذلك أفاد من مؤلفات رينيه جروسيه Rene Grousset،وكلود كاهن Claude Cahen، وشالندون Chalandon،وغيرهم .

والمؤكد أنه في ذلك يذكرنا بنفس التوجه الذي سعى إليه المؤرخ السكندري البارز الراحل ا.د. محمود سعيد عمران (ت ٢٠١٥م) حيث اهتم بالتوثيق المصدري في المقام الأول ونادراً ما تعامل مع المراجع الحديثة إلا بما افاد بحثه . ولا نغفل هنا ملاحظة أن الاعتماد الرئيسي علي المصادر التاريخية يتطلب من المؤرخ مجهوداً مضاعفاً لسد الفجوات بين اشاراتها المختلفة والمتعارضة أحياناً .

رابعاً : في تقديري، أن أهم إنجاز قام به ذلك المؤرخ في دراسته لتاريخ الحروب الصليبية من خلال المواجهة الطويلة والمريرة بين بيزنطة والغرب الأوروبي علي كافة المستويات الكنسية والسياسية،أنه قدم دراسة في الاستغراب Occidentalism كمقابل للاستشراق Orientalism، وكأنه بذلك يقدم لنا درساً في إننا كي نفهم الغرب، علينا دراسته بجذوره التاريخية كي نفهم حقيقة توجهاته صوبنا، وهوأمر نحتاجه بشدة .

من قبل ردد المفكر البارز حسن حنفي ضرورة الاستغراب كرد علي الاستشراق، وها هي دراسة ظهرت عام ١٩٧٠م، تقدم لنا ذلك التوجه قبل عقود من مطالبة حسن حنفي به، ولا تزال تلك الدعوة تتطلب التنفيذ العملي حتى لا نقع فريسة الفهم الخاطئ من جانب الغرب دون أن نسعى نحن لدراسته بعمق وبموضوعية .

خامساً : عندما نتأمل أسلوب ذلك المؤرخ، نجد انطباق المثل الفرنسي القائل le Style est l,homme ويكشف بالتالي عن اتساع الثقافة، وعمق القراءات الشخصية وتنوعها والقدرة علي الرؤية العميقة دون افتعال أوقولبة، بالإضافة إلي تعدد المفردات، وثراء دلالاتها وكان ذلك الأسلوب سلاحه الحيوي في التعامل مع تلك الحقبة البالغة الثراء في الصراع بين القوتين الأعظم في تاريخ العصور الوسطي الأوروبية وأعني بهما بيزنطة والغرب الأوروبي .

وفيما يتصل بزاوية الأسلوب، نجد تماسك عناصر كتابه روما وبيزنطة وكأنه تمت كتابته في مرحلة زمنية واحدة، ومستمرة دونما انقطاع وبالتالي فإن ضبط الأحداث وتناولها ظل في يد ذلك المؤرخ باقتدار احترافي دونما دعائية ممجوجة ولم يتغير أسلوبه الأدبي في المعالجة من البداية إلي النهاية مما دل علي وضوح الفكرة في ذهنه وسعيه لإثباتها باحتراف .

قدم لنا ا.د. إسحاق عبيد تجربة علمية وقد افاد من معرفته الواسعة باليونانية، واللاتينية، وإجادته الإنجليزية، والفرنسية بإقتدار ولست في حاجة إلي المزيد من عبارات المديح علي براعته في الترجمة، إذ يكفي للقارئ مطالعة ترجمته لجزء من مرثية نيكتاس خونياتس لمعشوقته القسطنطينية حيث جاءت الترجمة الفذة علي النحوالتالي : " أيتها المدينة، يا حديث العالم، يا منار الأرض، يا حامية الكنائس، ويا سيدة الإيمان، يا قلعة العلم، لقد تجرعت كأس غضب الله حتى الثمالة، ولقد حاق بك آتون أكثر بشاعة من ذلك الذي أصاب قديماً المدن الخمس !!" [٢٤] .

وفي تقديري أن كفاءته الأدبية لها أصل جغرافي إذ أن أبناء أسيوط تحديداً أعرف منهم البراعة الأدبية .– دون أن نتهم يالشيفونية الحمقاء والخرقاء – إذ يكفيها إنجاب عدد بارز من الأعلام وسيطاً وحديثاً مثل السيوطي، ومصطفي لطفي

المنفلوطي، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، والشاعر ابن النخيلة محمود حسن إسماعيل، وبالتالي فإن مؤرخنا اعتمد علي تأصيل لغوي لا ريب فيه، وهكذا، تؤكد لنا الجغرافيا علي انها توجه التاريخ فردياً كان أم جماعياً!!.

لا نغفل هنا أن أسلحة التخصص في دراسة العلاقات الدولية في العصور الوسطي ليست لغوية فقط، بل هناك اتساع المعرفة عموماً، وتعدد منابعها، والرؤية البانورامية لكل كيان دولي علي حدة، ثم تشابك مصالحه وعلاقاته مع القوى الأخرى، من خلال إدراك أن المصالح تتصالح وأن التاريخ لم ولا ولن يعرف عداءات دائمة أوصداقات دائمة بل المصلحة فيه لها القيمة العليا .

سادساً: يعد مؤرخنا، مؤرخاً موضوعياً نزيهاً لم تمنعه ديانته عن الإشارة بأصبع الاتهام للبابوية ومسؤوليتها التاريخية عن اشعال الحرب العالمية في العصور الوسطي، وفي نفس الوقت كان علي نفس المستوى من الموضوعية عندما أشاد بالبابا جون بول الثاني الذي قال عنه : " إن البابا جون بول الثاني قد وقف في شجاعة نادرة منذ بضع سنين يندد علانية بالحركة الصليبية وعدوانها من الألف إلي الياء،وهذا أمر يحسب للرجل " (٢٥) .بصورة دلت واكدت علي أن هدفه الرئيسي هو الانصاف والموضوعية وليس التجني علي احد علي نحومفتعل.

سابعًا : حرص مؤرخنا أشد الحرص علي البحث عن ادلة الاتهام دون قولبته أوإعتساف في الحكام، بل بروح الموضوعية الواجبة والملزمة ولذلك في روما وبيزنطة نجده مؤرخاً ومحامياً نزيهاً وبتوازن يندر مثاله وساعده علي ذلك عشقه الأصيل للحقيقة أصلاً ورغبته الصادقة في التوصل إليها علي نحومباشر ودونما افتعال .

ثامناً : تمتع مؤرخنا بإتساع الأفق والتسامح والروح الليبرالية التي تنشد الحقيقة، ولا شيء سواها، ولولم يمتلك هذه الصفات ما استطاع تحقيق هذا النجاح المدهش في دراسته لتاريخ الحروب الصليبية وبالتالي تأكد لنا أن صفات المؤرخ تنعكس علي رؤيته التاريخية بصورة لا جدال فيها، وأصل إلي هذه النتيجة بعد أن خابرت الرجل علي مدى أكثر من ٤٠ عاماً من التتلمذ والصداقة .

تاسعاً: في تقديري أن أهم اسهام لمؤرخنا الفاضل أن له منظوره التاريخي الخاص به الغير متأثر بتصورات الغرب، وبالتالي كان ينطلق من البحث عن الحقيقة، ولم يردد المألوف والمتواتر عن الحملة الصليبية الرابعة، وهكذا أتوصل إلي نتائج مصححة لتصورات مؤرخين غربيين ومن شايعهم من الشرقيين ومن هنا كان تفرده، وبالتالي تمكن باقتدار من الفكاك من المركزية الأوروبية في كتابة التاريخ .

عاشراً : أكد لنا ا.د إسحاق عبيد أن مؤرخي مصر الأقباط، مثل المؤرخ الرائد الراحل نسيم جوزيف يوسف، وفايز نجيب إسكندر، وعاطف مرقص، وغيرهم، اضافوا الجديد لدراسات تاريخ الحروب الصليبية ولم ينخدعوا بشعارات تلك الحركة الرنانة والبراقة، ووقفوا مع المؤرخين المسلمين المحدثين في خندق واحد من خلال نداء الضمير العلمي الحي . وكشفوا زيف ادعاءات البابوية التي تظاهرت بالتباكي علي فقدان الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين،بينما كانت تخفي من وراء ذلك العديد من الاطماع السياسية الأخرى .

ذلك عرض لرؤية الأستاذ الدكتور إسحاق عبيد لتاريخ الحروب الصليبية .

الهوامش

(١) عن ترجمة ا.د. إسحاق عبيد أنظر :

محمد مؤنس عوض، رواد تاريخ العصور الوسطي في مصر، سلسلة تاريخ المصريين،ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٢٥٣- ص ٢٦٤.

(٢) إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، من قطيف فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين،ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ٦٩.

(٣) نفسه، نفس الصفحة .

(٤) نفسه، ص ٦٨ .

(٥) نفسه نص ٨٨.

(٦) عن مفهوم الحرب المقدسة أنظر :

J.Brundage , The Holy war , Ohio state 197.

قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الصليبية الأولي،ط. القاهرة ١٩٨٧م .

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م .

(٧) إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، ص ٨٠-ص ٨١ .

(٨) عن البابا اوربان الثاني أنظر :

. Fulcher of Charters, A History of The Expedition to Jerusalem , trans , Frances Rita Ryan (Sisters of St. Joseph), ed . Harold Fink , Tennessee 1969,pp,62-67.

William of Tyre , A history of deeds done beyond The sea , Trans E.A. Babcock and A.C. krey , vol.I, New York 1943,pp.87-88.

D. Munro, The Speech of pope Urban II at Clermont 1095, A.H.R.,XI,1952,pp,231-242.

H.E.Cowdey, Pope urban II and The Idea of Crusade" S,M., 36, 1995,pp.721-742, J.N.D. Kelly, Oxford dictionary of popes ,Oxford 1996,pp,158-160.

جوزيف نسيم يوسف، الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م،ص ١٩٨–ص٢٠٥ .

حسن عبد الوهاب دراسة تحليلية لخطب البابا أوربان الثاني في كلير مونت ١٠٩٥م، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية عدد (٥١) عام ٢٠٠١م، ص١٢١– ص ١٤٩.

عبد السلام زيدان، الدعوة للحروب الصليبية علي بلاد الشام (١٠٩٥– ١١٨٩م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب – جامعة أسيوط عام ٢٠٠٤م، ص ٨٣– ص ١٢٠.

محمد بن علي الزيلعي، الطائفة الكاثوليكية وأثرها علي العالم الإسلامي،ط. الرياض ١٤٣٢هـ، ص ٢٠٠.

محمد مؤنس عوض، معجم عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب في القرنين ١٢،١٣م،ط. القاهرة ٢٠١٥م، ص ٥٣٤–ص٥٣٦.

(٩) إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، ص ٨٥.

(١٠) نفسه، نفس الصفحة .

(١١) نفسه،نفس الصفحة .

(١٢) نفسه، نفس الصفحة .

(١٣) عنها بالتفصيل :

عبد السلام زيدان : الدعوة للحروب الصليبية علي بلاد الشام (١٠٩٥–١١٨٩)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب – جامعة أسيوط عام ٢٠٠٤م (دراسة ممتازة لمؤرخ سوري بارز) .

(١٤) عن الحملة الصليبية الرابعة انظر:

Nicetas Choniates ,O, city of Byzantium , Aunales of Niketas Choniates, Trans . Harry Magnolias, Wayne State university, Detroit 1984,pp314.

McNeal , " The Fourth Crusade" in setton , A History of The Crusades, Vol II , Madison 1969,p.185.

اسمت غنيم، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤– ١٤٥٣،ط. الإسكندرية ١٩٨٧م، ص ١٥٨.

(١٥) عن البابا انوسنت الثالث انظر :

P.L. CCXIV– CCXVIIX

J.N.D. Kelly , Oxford dictionary of popes , Oxford 1996, pp.186– 188.

ليلي عبد الجواد، البابوية والإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤– ١٢٦١م) ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (العصور الوسطي)، تحرير د. محمد مؤنس عوض،ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١١– ص ٤١، محمد مؤنس عوض ، معجم أعلام عصور الحروب الصليبية في الشرق والغرب،ط. القاهرة ٢٠١٥م .ص ٥٣٢– ص٥٣٣، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، السياسة الصليبية للبابا انوسنت الثالث (١١٩٨– ١٢١٦م) .ط. الإسكندرية ٢٠٠٥م .

(١٦) إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، ص٣٤٧.

(١٧) عن المؤرخ البيزنطي نيكتاس خونياتس أنظر :

Nicetas Choniates , Historia , C.S.H.B.,Bonn 1835.

D, Nicol, A biographical dictionary of The Byzantine Empire, London 1991,pp.22–23.

فايز نجيب إسكندر، نيكاتس خونياتس وأعترافه بتسامح المسلمين وبربرية الصليبيين قراءة نقدية لتجاوزات الصليبية الرابعة (١٠٢٤م / ٦٠٠هـ) ضمن كتابه صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي،ط. المنصورة ب– ت .ص٥٥– ص ٥٧.

دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية،ت .حسن حبشي،ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٢٣٥– ص٢٣٦.

حاتم الطحاوي، بيزنطة والمدن الإيطالية العلاقات التجارية (١٥٨١–١٢٠٤م) ، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٤.

محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة،ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص٥٨– ص٥٩، نفسه، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب في القرنين ١٢،١٣ م، ط. القاهرة ٢٠١٥م، ص ٥٨٣– ص٥٨٥ .

عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطي،ط. دمشق ١٩٨٠م، ص ٢٦.

أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب،جـ٢،ط. بيروت ١٩٥٦م، ص ١٦٥-ص١٦٦ .

(١٨) إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، ص ٣٤٢.

(١٩) فلهاردوين، من مذكرات فلهاردوين فتح القسطنطينية، ت. حسن حبشي، المجمع العلمي بجامعة الملك عبد العزيز،ط. جدة ١٤٠٣هـ علي نحوخاص مقدمة المترجم البارز الراحل، ممدوح مغازي، الحياة السياسية وبعض مظاهر الحضارة في إمارة المورة الصليبية في عهد أسرة فلهاردوين من ١٢٠٥ إلي ١٣١٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب – جامعة طنطا عام ٢٠٠٠م، محمد مؤنس عوض، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية، ص٤٨٣- ص٤٨٤ .

(٢٠) إسحاق عبيد، تقديم ترجمة كتاب ريمون ستانبولي، مفاتيح اورشليم القدس، حملتان صليبيتان علي مصر (١٢٠٠-١٢٥٠)،ت. عايدة الباجوري، المشروع القومي للترجمة،ط. القاهرة ٢٠٠٤م، ص١٠.

(21) S. Runciman , A History of The Crusades, London 1978,The preface.

(٢٢) إسحاق عبيد، التقديم السابق، ص ١٠.

(٢٣) إسحاق عبيد، روما وبيزنطه ، ص ٣٣٩.

(24) Innocent III , An accomplice in The diversion of The Fourth Crusade 1204, E.H.R. , XV, Cairo 1969,p.19.

إسحاق عبيد، الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس،ط. بني غازي ب- ت، ص ١٢، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب،ط. القاهرة ١٩٩٩م – ٢٠٠٠م، ص٢٦٧.

(٢٥) إسحاق عبيد، تقديمه للكتاب السابق، ص ١٠.